في قصيدة (وتناثرت على جسمك) وكأنه كان يؤسس لمجموعته التالية .

* *

تمتلك مجموعة (أيتها الحبيبة خذيه عاشقاً) جهازاً عصبياً حساساً ، مما يجعل قدرتها الإيحائية عالية ، واستطاعتها الاندماجية عالية أيضاً مع توتر مدهش الفعالية والأثر ، لا سيما في القصائد الست التالية : الحب يأتي من النافذة ـ غيمة من دخان وورد ـ دمه انفجار البرتقال ـ نهار الشجرة . . لهب الماء ـ موسيقى للغيمة القادمة ـ أيتها الحبيبة خذيه عاشقاً . إذ تمتاز ببعد حسي ، استبطاني ، يتألق في وسط المعركة . كما أنها تؤجل إضرام معركتها إلى ما بعد تحديد صورة العدوّ . فقصيدة (دمه انفجار البرتقال) تبدأ برسم صورة الوطن المحتل على طريقة محمود درويش والمؤالفة ما بين الوطن والمواطن ، الأرض وابن الأرض .

يقول الشاعر :
ماذا يرى في البرتقال ؟
الوقت يخطفه لينأى عن حدود
البرتقال
الوقت ينشره على جبل
فترسمه الكآبات العريقة
صورة للوقت
لا . . للبرتقال . . .

ويجب الانتباه إلى ما تحمل كلمة (الوقت) من معنى إيحائي ، وحالة النقيض الإيحائية أيضاً التي تطرحها كلمة (البرتقال) بثقل مضاد لثقل الكلمة الأولى .

بعد ذلك تبدأ المعركة التي أصبحت مبررة ومنطقية . يقول الشاعر :
ماذا يرى ؟
دمه المعلق بين هاويتين
يمسك بالردى . . .
دمه يطل من النهايات القديمة
يرتدي دمه حزام البرتقال

* *

إن مجموعة عصام ترشحاني الأخيرة تدفعنا للمراهنة على قصائده المقبلة ، وتضعه هو بالذات أمام مسؤولية تطوير خطه الجديد الذي يبتعد بثقة عن مؤثرات شعراء المقاومة المؤسسين ، في سبيل لغة خاصة وصوت شعري متميز .

حلب

قهوة المدفع...

احمد عودة

أنا لا أذكرها . على أية حال هي ـ كما يقول أبي ـ وصيفة يافا عروس البحر وملتقى الرجال ممن لم تعصف بهم ريح غريبة ، فظلوا يلبسون الكوفية والعقال ، ومن تحت قمباز مرقط تموج عليه الشمس كلما رفرف ذيله حقلا من سنابل قمح أصفر .

وأبي يحكي على الفطرة . لا يزم شفيته ويصفن ليخرج الكلام من فيه موزونا يوهم الغير بأنه متحدث لبق . يحكي بمقدار ويعرف متى عليه أن يكون أخرس . هذه عادته مذ فتحت عيني عليه في الخيمة الداكنة ومنذ أن دخل رأسي بأنفه الشامخ وشاربه المعقوف يبرم ذؤابتيه ونظرة سهوم تستلقي في عينيه تسحبه بعيدا إلى أن تزعق أمي بصوت مذبوح :

ـ وحّد الله .

ينتفض مأخوذا يلملم طرف قمبازه ، ثم يأخذ وجهي بين يديه الخشنتين . يطلق زفرة تلفح طلائعها الساخنة وجنتي . أعجب أين يسافر وهو معنا حتى إذا عاد كان مهدودا بوجه يتخاطفه الشحوب . يتشاغل بفتل شاربه ويسافر بعيداً حتى يصعب جمعه من جديد .

هذه عادته ، ولكن إذا ما ذكرت يافا اهتز وربا لذكرها . يترنح رأسه كأنما لينفض عنه غباراً يغير على الخيام ومنازل الصفيح يقتلع بعضها ويطوي هيبة بعضها الآخر . يمصمص شفتيه ويطلق زفرة حرى :

ـ ايه ! قهوة المدفع .

تغدو ملامحه أسيرة ذكريات عزيزة تضرب مجاذيفها في بحر عينيه . يتخضب وجهه بحمرة غريبة أرى مثلها الكثير على وجوه الرجال والنساء وكذا الأطفال ، والكل محكوم ببضعة أرطال من الدقيق الأسود ، وبحفنة سكر أحمر ، وفي شهور البرد القارس قبضات من تمر فقد اسمه وهويته ، يرمي أبي إلي بحبة منه مغتاظاً .

ـ خذ . هذه برتقالة من يافا !

ويلعن وكالة الغوث واليوم الذي صار فيه لاجئاً يصطف طويلا تحت شمس لاهبة أو بين فكي برد شرس . ولأنه لم يعتد هذا الذي يسميه هواناً وذلا وقلة اعتبار ، كان ينفض قمبازه كلما عاد من مركز التوزيع مكفهر الوجه كأنما تلقى لطمة موجعة من يد حقود . يطلق الزفرات مردداً :

ـ بعدما كنت أحمل صناديق البرتقال صرت حماراً لهذي الوكالة اللعينة . . . صرت أحمل الطحين .

ثم يحكم على نفسه بالصمت إلى أن يجتمع شمل الرجال أمام الخيمة يلعبون « السيجة » ويشربون الشاي . ينفجر بلا سابق انذار فيلعن اليوم الذي أصبح فيه لاجئاً يسلم ذقنه لوكالة تضع على ظهره البرذعة وفي فمه اللجام . يقلب عينيه في وجوه الرجال ضارباً كفاً بكف :

ـ يا جماعة ! هذه الوكالة تسخر منا . عليّ الطلاق أنها تسخر منا . ما تعطينا إياه كنت أنفقه في أيام الجمع على الشاي والنارجيلة في قهوة المدفع !
تنتحر في عينيه نظرة مؤسية فيما تعبر وجهه موجة من الذكريات الحلوة .

ـ آه ! قهوة المدفع !

أرقبه وهو يتفتت ويذوب مسافراً من جديد وقد غدا خيالا لرجل يكون في لحظة ما أبي . حتى إذا ما صاح به أحدهم :
ـ قتلت جروك . العب !

ارتعش يرقب الجرو الميت ان كان حصاة أو نواة تمر ثم يهمهم بضحكة ساخرة يحمل نعشها الغيظ .

ـ جروي مات ؟! ايه ! ماذا تبقى لنا ؟ ايه ! جروي مات ؟ فليمت !
ويمد أصابع مرتعشة يحرك بها حصاة ما زالت في رقعة اللعب . حركة تبعث الدهشة في عيني الخصم :

ـ أنت يا « أبو عزيز » لا تلعب . أنت تقتل الوقت !

يمتص أنفاساً عميقة من لفافته « الهيشي » ويحدق إلى الرجل بعينين دب فيهما الاحمرار :

ـ كلنا نقتل الوقت . نقتل الوقت ويقتلنا .

يلتفت نحوي أو هكذا يخيل إلي . تشي ملامحه بأنه لا يعرفني أنا الولد الصغير الذي تخطيت سني مبكراً ولا أشارك أترابي اللعب . يعرفني أخيراً . يمد ذراعه ويقبض على ساعدي أو رجلي أو عنقي ، العضو الأقرب . يسحبني إليه قائلاً بغضب مفاجىء وهو يهزني بشراسة :

ـ كنت آخذه معي إلى قهوة المدفع . أحجز له مقعداً بجانبي . لم أكن أضعه على ركبتي كما يفعل البخلاء . لا تهمني النقود . أطلب له الشاي والقهوة . قهوة « أبو صالح » تعرفونها . وأحيانا أتركه يسحب من النارجيلة . كان يرفض فأتحايل عليه . كان يبهجني سعاله ودموعه تفر من عينيه كاللؤلؤ . وكنت أضحك .

يأخذ وجهي بين يديه الخشنتين ويصيح بي فجأة :
ـ أنت تذكر هذا حتماً .

أهز كتفي فيضربني على ظهري ضربة موجعة .
ـ ألا تذكر قهوة المدفع ؟ قهوة المدفع ألا تذكرها ؟

ينحّيني عنه بغلظة ويزفر آسفاً :
ـ ابن الملعونة لا يذكر !

ويتطوع أحد الرجال قائلاً بقصد أن يذهب غضبته أكثر من محاولته التخفيف عني :

ـ كان صغيراً في تلك الأيام .
يبسط يديه قائلاً باستهجان :
ـ ولكنها أيام لا تنسى . لا تنسى يا جماعة .

يضرب كفاً بكف . يتفرس بي طويلاً ثم يلتفت إلى حيث الصبية يطاردون كرة من جورب مهترىء .

ـ كل هؤلاء الملاعين لا يذكرون . مصيبة . كيف نتركهم ينسون ؟!
ويسدد إليّ نظرة ثاقبة تخترقني حتى العظم ، ويشير نحوي باصبع مرتعشة ، يُحمّلني وزر الكارثة :

ـ هذا الذي تقولون عنه صغيراً يذكرني بموعد توزيع المؤن آخر كل شهر .

يضحك أحد الرجال ضحكة فقدت لونها .
ـ المؤن فيها جبنة كشكوان وتمر سوداني ، أما التبغ العجمي فكيف يذكره وقد كان يسعل منه وتدمع له عيناه ؟!
يتطامن رأسه فتبدو ذؤابتا شاربه كجناحي دوري بات يرتعش من البرد . يغمغم :

ـ ايه ! كانت أياماً .
ويرفع وجهاً غدا أكثر شحوباً من ذي قبل :
ـ هناك انتهى العمر .

يقلب عينيه في الخيام ومنازل الصفيح وهي تهتز وتتوجع لكل نسمة شاردة . يقول بصوت كأنما هو صاعد من قعر بئر مظلمة أو هابط إليها :

ـ نحن أموات . صدقوني يا جماعة إننا أموات .
وعندما يصيح اللاعب الخصم بفرح طفولي :
ـ جروك مات .

يحدق إلى رقعة اللعب ببله كأنما يراها لأول مرة ، ثم يرمي الرجل بنظرة اشتعلت فتائلها . يمد يداً عصبية إلى الرقعة يبعثرها ، وينهض نافضاً قمبازه من التراب . يلقي القبض على يدي ويجرني وراءه بغلظة ، ثم يتوقف فجأة يتفرس بي فأبحر في عينيه تدفعني نسائم طرية عطرة . يأخذ بإبطي ويحملني برفق وحذر كأنما يحمل برميلاً من البارود .

عمـــان